يمكن تقسيم مراحل المدرسة الجزائرية الحديثة إلى مرحلتين:

01– مرحلة الدراسات التاريخية وتحقيق التراث من 1830 إلى 1914 م: غلبت عليها حركة إحياء التراث ونشر المصادر التاريخية الجزائرية من تأليف وتراجم شخصيات ورحلات، وقد مثل هذه المرحلة العديد من المؤرخين نذكر منهم:

أولا: حمدان بن عثمان خوجة (1189–1261 هـ/1773–1840 م):

يعتبر حمدان خوجة من أهم الشخصيات السياسية التي أثرت في الحياة الوطنية للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، كونه كان مستشارا في حكومة الداي حسين، ولد سنة 1773م بالجزائر العاصمة، ينتمي إلى أسرة جزائرية عريقة تملك الأراضي الشاسعة والمحلات التجارية في مختلف أنحاء العاصمة، ساعدته الظروف الاجتماعية بأن يتعلم، فقد كان أبوه من فقهاء الجزائر وأمينا عاما للإيالة وكان المشرف على الحسابات الإدارية وسجلات أسماء ورتب الانكشاريين، وكان عمه أمين بيت المال.

انتهى حمدان خوجة من مرحلة التعليم الأولى وهو في سن الـ11 ثم باشرها بالتعليم الثانوي تحت إشراف والده، حيث تمكن من دراسة علم الأصول والتاريخ والمنطق والفلسفة، وملما باللغات التركية والفرنسية والإنجليزية، ساعدته رحلاته المتعددة إلى البلاد الإسلامية والأوروبية مثل مصر وتونس وليبيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا في صقل شخصيته وفي تكوينه الأكاديمي والسياسي.

سمحت هذه الثقافة لحمدان خوجة بالاطلاع على ما يجري في أوروبا والعالم الإسلامي والإلمام بأحوالهما والاتصال بشعوبهما، ومعرفة خبايا الأنظمة القائمة والتي أدت إلى تأثره بما رآه من تخلف في العالم الإسلامي، إلا أنه توسم أن يرى يوما العالم الإسلامي متفتحا متحضرا رافعي لشعار العلم والمعرفة.

أصبح حمدان خوجة من أنشط السياسيين بعد الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830 م، ونظرا للسياسة الفرنسية العدائية اضطر لمغادرة الجزائر بعد أن يئس من الحد من الإجراءات التعسفية الاستعمارية، وبعد أن أدرك نوايا وأبعاد السلطة الاستعمارية الفرنسية التوسعي، متتبعا التطورات الحاصلة بالجزائر، ومواظبا على التأليف والترجمة والقراءة حتى وافته المنية أواخر سنة 1840 م، ودفن بمقبرة الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري والأرجح أنه توفي سنة 1845 م.

وفيما يلي أهم ما تركه من أعمال.

01– كتاب المرآة: ألفه في باريس سنة 1833 م باللغة العربية، ثم ترجمه صديقه حسونة الدغيس تحت عنوان: (Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger intitulé le miroir)

"لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر"، ثم ترجم إلى اللغة التركية، كان الغرض من تأليفه وترجمته إطلاع الحكومة الفرنسية على مساوئ الإدارة المدنية بالجزائر الناتجة عن الاحتلال.

هذا الكتاب يأخذ طابع التقرير، ويعتبر من الوثائق التاريخية التي فضحت جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فهو وثيقة تاريخية سياسية شاهدة على ما كانت عليه الجزائر قبل الاحتلال وبعده ببضع سنين.

02– مذكرة مقدمة إلى اللجنة الإفريقية Lu commission d'Afrique

في 14 جويلية 1833 م قدمت هذه اللجنة إلى الجزائر للتحقيق في الأوضاع التي آلت إليها جراء الاحتلال الفرنسي، لم يقتنع حمدان خوجة بوعود رئيسها لذلك كتب رسالة للجنة التالية في باريس بتاريخ 1833/10/26، ندد فيها بالمجاز التي قام بها الدوق "دو روفيقو" في حق قبيلة العوفية بغار جبال الظهرة بضواحي العاصمة سنة 1832 م، وأبدى فيها مواقف وطنية.

03– اتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء: ألفه باللغة العربية سنة 1252 هـ/1836 م ثم ترجمه إلى التركية وأهداه إلى السلطات محمود الثاني كمبادرة منه في ميدان الإصلاح في العالم الإسلامي، عالج فيه الضعف الثقافي في الجزائر والذي كان جزءًا من الضعف الحضاري للعالم الإسلامي، وفيه يطرح قضية الأصالة والمعاصرة، فإليه يعود السبق في طرح هذا الإشكالية، ويلاحظ من خلاله أن فكره متفتح على الثقافات والحضارات بمختلف أنواعها.

04– حكمة العارفين بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع: وهي رسالة ألفها سنة 1937 م، وهي تأييد لآراء الإمام أبي حامد الغزالي، وهذا دليل على أن حمدان خوجة مطلع على الفكر الإسلامي، وخاصة فكر أبي حامد الغزالي، وهذا ما يؤكد انتماؤه للأشعرية، ويذكر بعض الشخصيات الفكرية الإسلامية مثل: "ابن عطا الله السكندري"، "أبو الحسن الشاذلي" و"داود الأنطاكي" وغيرهم.

05– نور الإيضاح ونجاة الأرواح: كتاب للشيخ حسين الشرنبلالي الحنفي (1585–1659 م) نقله حمدان خوجة من العربية إلى الركية سنة 1839 م وأسماه "إمداد الفتاح" وهو كتاب في فقه المذهب الحنفي.

– له مخطوط ضخم في حوالي 456 صفحة انتهى من نسخه في شهر ذي القعدة سنة 1249 هـ/1833 م.

يمكن القول أن حمدان خوجة من المقاومين الجزائريين المفكرين الذين كتبوا عن بدايات الاحتلال، له حس وطني فياض، وله رؤى قومية بكل العمق الحضاري لهذا الانتماء: العروبة والإسلام.

ثانيا: محمد بن أبي شنب (1969– 1929).[1]

هو محمد بن العربي، محمد بن أبي شنب الجزائري، أديب وباحث وأحد أعلام المغرب العربي في نهاية القرن 19 م، وبداية ق 20 م، وهو أحد رواد النهضة العربية الحديثة، وأول جزائري حامل لشهادة الدكتوراه في العصر الحديث، ولد بمدينة المدية عام 1869 م، فيها تعلم ونشأ، وصار واحدا من علماء اللغة العربية رغم اتقانه للفرنسية، شغل أستاذا للآداب العربية في جامعة الجزائر، شارك في العديد من المؤتمرات على غرار: مؤتمر المستشرقين في الرباط سنة 1928 م، ومؤتمر المستشرقين بمدينة أكسفورد، كان متقنا لعدة لغات منها العربية والفرنسية والفارسية والإيطالية والتركية والإسبانية، انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق سنة 1920 م، وعضوا في المجمع العلمي الاستعماري في باريس.

قام محمد بن أبي شنب بنشر التراث العربي الإسلامي، واتضحت اهتماماته في دراسة التراث التي أهلته للحصول على درجة الدكتوراه في التراث عن "أبي دلامة" سنة 1922 م، استطاع بين سنة 1904 و1927 أن ينشر العديد من كتب التاريخ والرحلات والأدب والعروض والمنطق، وظهرت علاقته بالاستشراق في مؤلفاته ونصوصه وفي تحقيقه للنصوص والتعريف بالتراجم.

مؤلفاته:

له عدة مؤلفات قام بتحقيقها نذكر منها:

01– رحلة الورثلاني (1908 م): والمسماة "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، وهي رحلة معروفة (مخطوط) للعلامة الشيخ الحسين بن محمد السعيد المعروف بالورثلاني، تعد مصدرا مهما في تاريخ الجزائر خاصة وتاريخ العالم العربي عامة (تونس وليبيا ومصر وبلاد الحجاز)، ترجم فيها العديد من الشخصيات، وذكر آثارهم، وصف من خلالها وضعية الجزائر خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري، حوى هذا المؤلف فوائد تاريخية وجغرافية عالية القيمة.[2]

[1]- حول هذه الشخصية ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج، ص ص168- 173.

[2]– حول الرحلة ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص ص393- 398.

02– البستان في ذكر العلماء والأولياء في تلمسان (1908): هو مخطوط لأبي عبد الله محمد الشريف المليتي التلمساني الشهير بابن مريم، رتب فيه المؤلف تراجم العلماء، وأورد لهم تراجم تختلف تبعا لحجم العلم المترجم له على حروف الهجاء (ألفبائي)، انتهى من تأليفه سنة 1011 هـ، بمدينة تلمسان، يعتبر هذا الكتاب مصدرا بالغ الأهمية في دراسة الحياة العلمية والثقافية بمدنية تلمسان خاصة والمغرب الأوسط عامة، نظرا لحركة العلماء، وترددهم على حوافر العلم والثقافة خلال العصر الوسيط.

03– الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (1910 م): لمؤلفه أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني البجائي، خصص في الترجمة لعلماء بجاية ونواحيها خلال ق 07 هـ، ويعد هذا الكتاب أثرا علميا نفيسا يكشف عن الازدهار العلمي والأدبي ببجاية، كما يطلعنا على النشاط التعليمي الذي يتبعه أهل هذه المناطق في طلب العلم والآداب، وبالتالي يعتبر مصدرا أساسيا لمؤرخي الأدب والحياة العقلية في هذه الفترة.

04– الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (1921 م): لعلي بن أبي زرع الفاسي، نشره ابن أبي شنب مصححا ومحققا.

05– تدميث التذمير في التأنيث والتذكير: هي منظومة لبرهان الدين الجعبري حققها سنة 1911 م.

06– الفارسية وعلماء افريقية وتونس: لأبي العربي، وهو في جزئيين تم تأليفه سنتي 1915 و1920 م.

07– الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية: لابن قنفذ القسنطيني.

08– وطرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار: لمؤلفه الشيخ محمد العربي المشرفي الغريسي.

09– وصايا الملوك وأنباء الملوك من أولاء الملك قحطان بن هود النبي.

10– قضاة قرطبة وعلماء إفريقية: لمؤلفه أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني الأندلسي.

11– شرح ديوان علقمة: للأعلم الشنتمري سنة 1927 م.

12– شرح ديوان عروس بن الورد: لابن السكي وكان ذلك سنة 1926 م.

13– شرح شواهد جمل الزجاجي في النحو: وكان ذلك سنة 1927 م.

14– تحبير المشين في التعبير بالسين والشين: لصاحبه الفيروز آبادي سنة 1927 م.

15– شرح الشنتمري لشعر امرئ القيس.

تعتبر هذه المؤلفات في مجملها من المصادر الرئيسية في دراسة تاريخ المغرب الإسلامي وخاصة في جانبه الحضاري، إذ أن أغلبها يتناول بالدراسة الحركة العلمية التي شهدتها بلاد المغرب.

ثالثا: أبو قاسم الحفناوي:

هو أبو قاسم محمد الحفناوي (1266- 1360هـ/ 1850- 1942 م) بن الشيخ أبي القاسم الملقب والمعروف بابن عروس بن الصغير بن محمد المبارك الديسي، يتصل نسبه بولي مدينة بوسعادة، صاحب الضريح الشهير بسيدي إبراهيم وأمه السيدة خديجة بنت الشيخ المازري الديسي.

كان والده من أعيان علماء عصره في اللغة والأدب والفقه، حفظ القرن الكريم واستدعي للتدريس بمختلف زوايا البلاد ومعاهدها الدينية، تخرج على يده عدد كبير من الطلبة ومنهم الشاعر المؤلف الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي الكفيف.

أخذ الحفناوي مبادئ العلوم عن والده، كان سريع الحفظ، انتقل إلى الاتصال بمشايخ كبار معاهد العلم والزوايا في عصره، حيث نزل في زاوية طولقة واتصل بمؤسسها فأخذ عنه وعن الشيخ مصطفى بن عبد القادر، ثم انتقل إلى زاوية ابن أبي داود بتاسيلت حيث قضى بها مدة ثلاث سنوات، أخذ فيها علوم القرآن الكريم، ودرس الفقه والفلك، ثم عاد إلى بوسعادة، والتحق بزاوية الشيخ محمد بن أبي القاسم الشريف الهاملي مؤسس زاوية الهامل.

نزل الشيخ الحفناوي إلى العاصمة سنة 1883 م، حاملا معه كتبا في فنون عدة، تعرف على فئة من العلماء منهم الشيخ علي بن الحفاف المفتي المالكي ومدرس الجامع الكبير، والشيخ محمد القزادري والشيخ حسن بريهمات مدير المؤسسة الذي اقترح عليه ليكون أستاذا بالمدرسة، ولكنه رفض.

إن ثقافة الشيخ الحفناوي كانت دينية ولغوية وأدبية مستمدة من التراث ومحاكية له، ثم طعمها بثقافة فرنسية، ساعده في ذلك تمكنه من اللغة الفرنسية والتي دمجها مع رصيده الديني والأدبي فكانت النتيجة جملة من المؤلفات نذكر منها:

01– تعريف الخلف برجال السلف: صدر سنة 1906 م، ساهم بكتابه في إحياء التراث الجزائري القديم والحديث، ليؤكد أن للجزائر عبر عصورها أعلام وعلماء، وأنها كانت نبعا للعلوم والمعارف والآداب.

02– الخير المنتشر في صحة البشر: طبع هذا الكتاب بالجزائر سنة 1908 م، ونشرته الإدارة الفرنسية في عهد "شارل جونار" وهو ترجمة لكتاب التدابير الصحية للحكيم "دركل".

03– القول الصحيح في منافع التلقيح: قامت بنشره أيضا الإدارة الفرنسية.

04– رفع المحل في تربية النحل: موجه إلى المسلمين لتعليمهم كيفية تربية النحل.

05– المستطاب في أقسام الخطاب.

06– أرجوزة في جغرافية ابن خلدون.

أما المؤلفات غير المنشورة فهي:

07– غوص الفكر في حروف المعاني: وقد شرحه بنفسه تحت عنوان " ثوغ الدرر على غوص الفكر".

08– الأقاليم السبعة.

أما المقالات والبحوث العلمية فقد صدرت في أغلبها في جريدتي "المبشر" و"كوكب إفريقيا".

الخاتمة

حاول مؤرخو هذه الفترة العصيبة من تاريخ الجزائر مد يد العون إلى كل جزائري ليعرف وطنه من خلال مؤلفاتهم المتنوعة، فقد اهتموا بخدمة التراث وتحقيق المخطوطات ونشرها وهذا من الأعمال الجليلة التي ينبغي أن يعتني بها الباحثون، إضافة إلى التعريف بعلماء الجزائر خاصة والمغرب الإسلامي عامة من خلال التراجم لهم.